الدخان فى الشعر ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى

كتب الأديب فتحى يسيونى دعبس فى العدد « ٩٢٠ » من الرسالة الزاهرة كلمة فى البريد الأدبى تساءل فيها عن عدم تناول الشعراء المعاصرين الدخان فى شعرهم مع أنه بلغ من سرعة الانتشار هذا المبلغ العظيم، ورجا فى ختام كلمته رجال الشعر وأرباب القريض أن يجعلوا من الدخان ملاحن وأغاريد يخلدون بها هذا النوع من الترف المدنى شأنهم فى تخليدهم الخمر التى يقول فيها إمام هذا اللون من الشعر وأعنى به الحسن بن هانى الملقب بأبى نواس

انن على الخمر بأن لائمها ... وسمها أحسن أسمائها

لا تجعل الماء لها قاهراً ... بلى وسلطها على مائها

والخمر قد يشربها معشر ... ليسوا إذا عدوا بأكفائها

وإظهاراً للحقيقة وإجابة للصديق الفاضل أود أن أقدم لقراء الرسالة بعض الشعر العراقى المعاصر الذى قاله شعراء العراق فى الدخان

فقد قال المرحوم معروف الرصافى وهو من المبرزين لدى أدباء العربية فى وصف السيكارة من قصيدة طويلة سماها (العادات قاهرات) أبيات إن تكن متينة فى ديباجتها إلا أنها تعد بحق من خيرة القصائد التى قيلت فى هذا المعنى ، ومطلع هذه القصيدة

كل ابن آدم مقهور بعادات ... لمن ينقاد فى كل الإرادات

ثم يسترسل حتى يأتى إلى ما نحن بصدده فيقول

لو لم تكن هذه العادات قاهرة ... لما أسيغت بحال بنت حانات

ولا رأيت «سكارات» يدخنها ... قوم بوقت انفراد واجتماعات

إن الدخان لثان فى البلاء إذا ... ما عدت الخمر أولى فى البليات

ولست أدرى ما هو رأى شعرائنا الآن فى البيت الأخير من قصيدة المرحوم الرصافى وأعنى بهم شعراء الخمر ومنهم صديقنا جميل أحمد الكاظمى وفؤاد عباس وخيرى الهنداوى فى العراق . أما أنا فلست على رأى الرصافى طبعاً ثم يواصل وصفه فيقول .

ورب بيضاء قيد الإصبع احترقت
فى الكف وهى احتراق فى الحشاشات
إن مر بين شفاه القوم أسودها
ألقى اصفراراً على بيض الثنيات
وليتها كان هذا حظ شاربها
بل قد تفت بكفيه المرارات
موائد عمت الدنيا مصائبها
وإنما أنا فى تلك المصيبات
إن كلفتنى السكارى شرب خمرتهم
شربت لكن دخاناً من سكاراتى
وقلت ياقوم تكفيكم مشاركتى
إياكم فى التقذاذ بالمضرات
إنى لأمتص جمراً لف فى ورق
إذ تشربون لهيباً ملء كاسات
كلاهما حق يفتر عن ضرر
يسم من دمنا تلك الكريات
حسبى من الحق المعتاد أهونه
إن كان لابد من هذى الحماقات

والقارئ يجد فى الأبيات السابقة أن المرحوم الرصافى قد كذب على نفسه وعلى الناس لأنه رحمه الله كان لا تفارق الكأس شفتيه وهو كما قال فيه صديقنا الأستاذ الزيات: « همه من الحياة شرب العرق ولعب الورق واستباحة الحمال » وقد حدثنى الأستاذ الشاعر خيرى الدين الهنداوى وهو صفى الرصافى وصديقه الحميم فقال :

إن صاحب الجلالة المرحوم فيصل الأول كان قد سمع بأن الهنداوى يشرب الخمر بإفراط وأن الناس قد نقلوا له ـ وأعنى المقربين إلى جلالته آنذاك ـ أحاديث لا تسر؛ لذلك أرسل فى طلبه، وحينما مثل بين يدى جلالته طلب منه هجر الخمر وإن لم يستطع فليشرب ولكن دون أن يعلم أحد به .. وما كان من الهنداوى إلا أن امتثل أمر جلالته ووعده بالطاعة وترك بنت الحان نهائيا ، وخرج الهنداوى على هذا الأمر واعتكف فى داره وهو ينظم قصيدة فى هذا المعنى . وبعد يومين من نشر القصيدة جاءه المرحوم الرصافى وكان الوقت صباحاً وبيده قنينة خمر وعندما

استقريه الجلوس قال لصديقه الهنداوى أنت صاحب القصيدة التى تقول فيها لصاحب الجلالة إنك ستتوب عن شرب هذه الفضة، وأخرج له قنينة الخمر، فأجابه الهنداوى: طبعاً، فما كان من المرحوم الرصافى إلا أن أفرغ فى الكأس قسماً منها وناولها الهنداوى وهو يقول:

والله لأفسدن عليك هذه التوبة.

وظل يداوره حتى شربها. وهذه القصة ـ وصاحبها حى يرزق ـ ما سقتها إلا للاستشهاد على كذب المرحوم فى شعره وأعذب الشعر أكذبه كما قال غيره

ثم يقول فى القصيدة نفسها

يامن يدخن مثلى كل آونة لنى ألمك ولا ترض اعتذارانى
إن العوائد كالأغلال تجمعنا على قلوب لنا منهن أشتات

ويختم الشاعر قصيدته بقوله

لو لم يك الدهر سوقاً راج باطلها
ماراجت الخمر فى سوق التجارات
ولا استمر دخان التبغ منتشراً
بين الورى وهو مطلوب كأقوات
لو استطعت جعلت التبغ محتكراً
فوق احتكار له أضعاف مرات
وزدت أضعاف أضعاف ضريبته
حتى يبيعوه قيراطاً بعشرات
فيستريح فقير القوم منه ولا
يبلى به غير مثر ذى سفاهات

والقارئ الكريم يلاحظ فى هذه الأبيات ركاكة فى التعبير وذلك كما قلت سابقاً أن القصيدة هذه ليست من الفن فى شىء إلا النظم، وذلك لدخول ألفاظ عادية فيها ولكنها تعبر عن ابتلاء الشاعر بهذا البلاء الذى عم الورى. ولست أدرى ماذا كان الرصافى يقول لو شاهد الآن الغانيات وهن يدخن فى شوارع بغداد؟!

ثم أذكر بيتاً للشاعر العراقى أحمد الصافى النجفى الذى قست عليه ظروف العيش فى بغداد كما قست على غيره فشردته فى دمشق وهذا شأن الحكومات أو الوزارات للتعاقبة على الحكم من تشريد الأدباء وإماتتهم جوعاً كما فعلت بالرصافى، والكاظمى عبد المحسن الذى لولا كرم الأمة المصرية لمات عارياً، وهذا البيت منشور فى مجموعته الشعرية الموسومة بـ « أشعة ملونة » التى طبعتها جريدة الهاتف الزاهرة لصاحبها الأستاذ جعفر الخليلى على نفقتها الخاصة وهو

تخذتها أمة حتى غدوت لها
عبداً، وها أنا أفنيها وتفنينى

وللأستاذ محمد صالح بحر العلوم شاعر الشعب رباعية جميلة فى وصف السيكارة هى

ذات جسم مستخلص من نضار
حجبت نفسها عن الأنظار
فى خمار من اللجين، شربنا
من شذاها خمراً بدون خمار
قبل « العود » رأسها فأحست
باحتراق، واستسلمت بانكسار

وأذابت أنفاسها بدخان فى فمى، ذوب جسمها فى النار

والأستاذ بحر العلوم شاعر واقعى يجيد التعبير عن آلام الشعب وله من الدواوين المطبوعة « العواطف » ومن الخطية « الشعب » و « المكشوف » و « الرباعيات » وسأتناول شعراء العراق المبرزين فى هذا العصر بالتحليل على صفحات الرسالة قريباً إن شاء الله

وقد عثرت على أبيات للشاعر العراقى المرحوم محمد سعيد الحبوبى وهو من شعراء القرن التاسع عشر للميلاد وقد ولد كما يقول جامع ديوانه فى أواخر العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من القرن الثالث عشر للهجرة، يصف بها « النارجيلة » أى « الشيشة » فى لغة إخواننا المصريين الدارجة.. ولاتصالها بالدخان أثبتها هنا، وهى كما يراها القارئ رقيقة تتسم بالأصالة والعذوبة وهذا هو شأن شعره على المجموع وإن كان لا يخلو من التقليد شأن شعراء عصره. وقد كنت أرجو لو اتسع لى المجال مع الدكتور مهدى المبصير الذى سبق أن تكلم عن الشاعر الحبوبى فى سلسلة خطبه التى أذاعها من دار الإذاعة اللاسلكية ببغداد ثم جمعها فى سفر باسم (نهضة العراق الأدبية)!